المحاضره 06:

السيرة الشعبية (سيرة الأميرة ذات الهمة)

تمهيد:

تعتبر السيرة الشعبية شكلا بارزا من أشكال التعبير الشعبي، وذلك لاتصالها بالشعب وتصويرها لتاريخ الأمم والشعوب. والسيرة الشعبية ملحمة العرب، لأنها تنقل لنا قصة الأبطال ومآثرهم وانتصاراتهم.

- أولا: تعريف السيرة الشعبية:

هناك عدة تعريفات للسيرة، نذكر منها تعريف الباحث "فاروق خورشيد" إذ يعدها "مرحلة من مراحل نضج وتطور الأدب الشعبي، بداية من الحدوثة والحكاية الخرافية وألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، ذلك أن السيرة ذات بطل واحد، وذلك بالإضافة إلى تعدد الأحداث الكثيرة والمتصلة التي تعد بديلا عن الملاحم الغربية" [*].

أما الباحثة "نبيلة إبراهيم" فتعرف "فن السيرة الشعبية بوصفه ذلك الفن الذي تمتزج فيه عدة فنون مختلفة، مثل الرواية، والغناء، والعزف، وهو الفن الذي تناقله الناس عبر العصور حتى وصل إلينا. وتعد السيرة الشعبية نوعا من القصص الشعبي الذي يعيش وينمو بدافع من اللاشعور الجمعي، ومصدر هذا الاحساس والتعبير شعور الفرد بالعقبات المحزنة والمكنونة في لا شعوره منذ طفولته حتى مرحلة التفرد والاكتمال" [*]. بمعنى أن هذا النوع القصصي ينمو بدافع من اللاشعور الجمعي، حيث تبث فيه الجماعة كل أحلامها وهواجسها. وهي قصة بطولة، وتختلف عن الأسطورة في أحداثها الواقعية. لكن المخيلة الشعبية تضيف إليها بعض الخوارق والمبالغات مما يجعلها تندرج في عالم الخرافات والأساطير.

- ثانيا: الدافع وراء ظهور "السيرة الشعبية":

تورد الباحثة "نبيلة إبراهيم" رأيا مفاده أن "ظهور الإسلام يعد أحد الحوادث العالمية الكبرى التي فجرت عصر البطولة وأدب البطولة". فالإسلام صارع الوثنية والمسيحية، وظهر أثناء هذا الصراع أبطال مسلمون، لولا أن التاريخ سجل أسمائهم لحسبهم الإنسان من الشخصيات الخيالية.

- ثالثا: نموذج عن السير الشعبية –سيرة الأميرة ذات الهمة–:

تعد هذه السيرة العربية أطول سيرة في التاريخ. ذلك أن حجم مخطوطاتها المحفوظة بمكتبة المتحف البريطاني ومكتبة الدولة ببرلين بألمانيا الغربية يصل إلى 23 ألف صفحة، وتغطي أحداثها حروب قارية متصلة لأربعة قرون بين العرب والمسلمين من جانب، والتحالف الأوروبي البيزنطي أو كما تسميه السيرة بالتحالف الرومي من الجانب المقابل.

زمنها: تغطي أحداث السيرة حقبة مطلع الإسلام وانتشاره مرورا بمطلع العصر العباسي وتنتهي أحداثها في عصر الخليفة العباسي "الواثق بالله".

هدف السيرة: هو التأريخ لسلسلة الاعتداءات والحروب الخارجية الطامعة في الدولة الإسلامية الوليدة، وهي الحروب الرومانية أو الرومية البيزنطية.

مؤلف السيرة: قاص شعبي غير معروف.

- رابعا: خصائص سيرة " الأميرة ذات الهمة":

- كاتبها يمكن أن يكون فردا أو يؤلفها مجموعة من الأفراد.
- لها أهداف تربوية وأخلاقية.
- غلبة الطابع الديني على السيرة الشعبية.
- بطلها ينتمي إلى البيئة العربية.
- رسالة البطل في السيرة هي دائما رسالة حق وصراع مع الشر والانتصار عليه في كل صوره.
- للمرأة مكانة كبيرة ودور هام في السيرة الشعبية.

- خامسا: ملخص سيرة " الأميرة ذات الهمة":

من هي "ذات الهمة": هي فاطمة بنت مظلوم بن الصّحصاح. ولدت ذات الهمة بالحجاز في أواخر الدولة الأموية، لكن أباها الأمير مظلوم بن الصحصاح أرسلها إلى بوادي الحجاز لتربيها حاضنتها (الرباب). فأحبت فاطمة حياة الجبال، وعانقت أعناق الخيول منذ أيامها الأولى.

طفولة ذات الهمة: ترعرعت فاطمة على قصص أمجاد جدها الصحصاح، المجاهد الباسل الذي أفنى عمره على أعتاب القسطنطينية، وسبر أغوار بلاد الروم، ودوّن المجلدات عنهم وعن عاداتهم ولغتهم، وعن أسلحتهم واستعداداتهم العسكرية.

شبت فاطمة على ذكر أمجاد جدها حتى أغير على واديها فأُسرت، لكنها هربت وجمعت جيشا من الرجال وأغارت به على القبائل، حتى علمت بأصل نسبها ومكان أهلها، فعادت إليهم وقد ذاع اسمها في الأمصار.

رفضها الزواج: في مجتمع قبلي لم يكن لفاطمة أن تقع في نفوس الشباب من أقرانها سوى زوجة صالحة، تهافتوا لخطبتها لكنها رفضت بإباء. كانت تقول أنها لم تخلق للزواج، إنما خلقت لتقارع الرجال. ورغم أنها انشغلت بالفروسية، لم يتورع ابن عمها الظالم "حارث" عن حذو نعلها بالنعل راغبا في الزواج منها، وقد نائت عنه كعادتها.

شهرة ذات الهمة: ازدادت شهرة فاطمة وتناقلت القبائل العربية في دمشق وحلب وبغداد أخبار فروسيتها ورغبتها في استعاده أمجاد جدها الصحصاح للدفاع عن ثغور القوم.

زواجها: تناهت أخبار ذات الهمة إلى سمع الخليفة أبو جعفر المنصور، فاستدعاها وفاتحته باقتحام جبهة الروم. لكن ابن عمها الحارث الذي حضر اللقاء، ركب موجة الحديث مع الخليفة وطلب يدها منه. تحرجت فاطمة ثم أذعنت في آخر الأمر. لم يكن لفاطمة بعد هذه الواقعة سوى الهروب إلى الصحراء.

الحرب في الروم: هبت أخبار تقول بأن الروم تحركوا لمهاجمة المسلمين، فأرسل الخليفة إلى فاطمة طالبا مشورتها، وأرسلها إلى قتال الروم مع جيش كانت ذات الهمة الساعد الأيمن لقائده.

بعد أيام تلقى الخليفة أخبار النصر، وشجاعة وعبقرية فاطمة في الحرب التي أسفرت عن غزو "مالطا".

تعرضها للغدر: كان الحارث يخجل أن تكون زوجته فارسة. فأخذ يشكو الأمر إلى "ابن الرباب" أخ فاطمة من الرضاعة ووصيفها، حتى أقنعه بوضع سائل سحري في طعامها وفعل. حين استيقظت فاطمة صباحا، حدست "الرباب" أن فاطمة حامل لكنها آثرت الكتمان. عرفت ذات الهمة بحملها فحزنت حزنا شديدا لكنها كانت تتابع أخبار الحرب عن بعد.

ابنها "عبد الوهاب": ترعرع "عبد الوهاب" على الفروسية. دربته أمه حتى صار بارعا، وكلفته بخداع الروم وأسرهم. كانت الأميرة ترى في ابنها خير سند وصديق، تحن إلى مشورته في معظم أمورها. ذلك أنه خبر فنون الحرب والقتال رغم حداثة سنه.

تسلمت فاطمة وابنها بعد فترة جبهة القتال مع الرشيد (الخليفة هارون الرشيد)، قسم جابه الروم في مالطا، وقسم قادته فاطمة لمحاصرة القسطنطينية.

أم المجاهدين: ذات ليلة وبخدعة ماكرة، تحقق حلم ذات الهمة وقلدت أول أميرة على المدينة، في حين عاد هارون الرشيد إلى بغداد ليستخلف أخاه في الحكم. وقد لقب الأميرة بـ "أم المجاهدين".

بيد أن اعداء النجاح أخذوا يكيدون لفاطمة في البلاط، وروعوا للخليفة من تعاظم نفوذها. فزج بها في السجن هي وابنها، لكن أحدهم فر بهما في تلك الليلة. وحين وقفوا على أعتاب القسطنطينية وجدوها على حافة الخطر.

موت فاطمة: قادت فاطمة المعركة إلى أن جرحت، وتولى ابنها القيادة حتى أعاد القسطنطينية إلى حوزة الخلافة. لكن ذات الهمة قد ترجلت عن صهوة الحياة.

كان موت أم المجاهدين متأثرة بجراحها مروعا ومفجعا. تنازعت بغداد والحجاز ومكة قصب السبق، كل تطالب بمواراة جثمانها في ثراها. بيد أن عبد الوهاب حسم الأمر وأمر أن توارى إلى جانب جدها الصحصاح.

وهذه بإيجاز كانت حكاية ذات الهمة. وهي سيرة مشرقة من تاريخنا العربي والإسلامي.

مراجع المحاضرة:

- فاروق خورشيد: الزمان والمكان في السيرة الشعبية، مجلة الفنون الشعبية، 1994.
- نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمة (دراسة مقارنة)، المكتبة الأكاديمية، مصر، ط5، 1994.